الفصل الثانى: بدايات الهُوِيَّة
الاتجاه إلى عالم الفكر

الطفولة والمدرسة والجامعة

كان المفروض أن يصبح عبد الوهاب تاجرًا كبيرًا كأبيه وجده، لكن المناخ الفكرى السائد فى الطبقة المتوسطة، وتردده على المكتبات العامة، ثم عناية الأساتذة فى المدرسة والجامعة عدلت المسار، وفتحت آفاقه على عالم الفكر الرحب.

الثمرة الرابعة عشرة...

البذور الثقافية

بدأت ملامح **انفصال عبد الوهاب المسيرى عن البيئة التجارية لعائلته الممتدة واتجاهه إلى عالم الفكر والثقافة** وهو فى الثالثة أو الرابعة من عمره؛ فكان يقلد طبيب العائلة فى هيئته ومشيته، وأعلن أنه قرر أن يصبح

«دكتورًا». وفيما بعد اتجه إلى الاستماع لفيروز بدلًا من أم كلثوم مخالفًا التقاليد البرجوازية والعائلية وقتها.

ويضيف د. المسيرى: من خلال علاقتى بابن ناظر مدرسة الزراعة (أسرة نووية غريبة عن المجتمع الدمنهورى)، لاحظت أنه هو وأسرته أقل ثراءً من الناحية الاقتصادية من أسرتى، إلا أن أسلوب حياتهم أجمل، وكنت أراهم يقرأون الكتب. وحينما أذهب إلى منزلهم كنت ألاحظ أنهم يتحدثون فى أشياء كثيرة متنوعة، وكانت هناك لوحات على الحائط وتحف فى دولاب الفضيات. **وبدأت أدرك أن ما يحدِّد حياة الإنسان ليس بالضرورة العنصر الاقتصادى.**

*** مكـتبة البلديـة**

وذات يوم اكتشفت **مكتبة البلدية** من خلال ابن أحد الموظفين (فأبناء التجار مثلى كانوا لا يذهبون للمكتبات).

وأذكر جيدًا أن أول ما اطلعت عليه كان كتب الأستاذ كامل كيلانى الملونة للأطفال، فغمرنى فرح لم أشعر بمثله من قبل. وقد توسم فىَّ أمين المكتبة شيئًا من الخير، فكان يختار لى الكتب بنفسه، فنصحنى بقراءة كتب التاريخ، بما فيها كتاب عبد الرحمن الرافعى عن تاريخ مصر الحديث، وبعض الكتب سهلة المنال عن الفلسفة والفنون، وبعض الروايات.

لذلك كنت أحرص وأنا أُدرِّس فى الجامعة أن ألقى أول محاضرة فى المكتبة، لأخبر الطالبات بطريقة الاستعارة وتقسيم المكتبة، وأنواع الكتب: موسوعات ومعاجم وكتب إرشادية ومراجع وكتب فن. وكان كثير من الطالبات يعتبرن أن هذه المحاضرة كانت تمثل لحظة فارقة فى حياتهن، تمامًا مثل زيارتى لمكتبة دمنهور.

*** المدرسة من النضج الفكرى والتعليم إلى اللا تعليم**

كان يمكن لهذه التجارب التى خضتها كطفل أو صبى يافع أن تتحول إلى مجرد تجارب مرحلية، وألا تساعدنى على ولوج عالم الفكر، لو لم ينعم الله علىّ **بمدرسين وأساتذة جامعيين**، ساعدونى ودفعونى ودعَّموا ثقتى بنفسى وساعدونى على التفكير النقدى.

قضيت مرحلة الدراسة الثانوية فى مدرسة دمنهور الثانوية. وكان بها عدد كبير من المدرسين الشبان الذين استمروا فى دراستهم العليا فى الإسكندرية، بالرغم من أنهم لم يُعيَّنوا فى الجامعة.

كان من أهم أساتذتى الأستاذ روفائيل مدرس التاريخ الذى توسَّم فىَّ خيرًا وأعلن للطلبة أننى عبقرى وأنهم يجب ألا يقارنوا أنفسهم بى، وبدأ يطلب منى أن أكتب «أبحاثًا» خارج المقرر، وكان يقرؤها على الطلبة، الأمر الذى كان يسبب لى حرجًا شديدًا وسعادة بالغة فى الوقت نفسه. لم أكن أفهم سر حماسته لى، فحتى ذلك الوقت (سنة ثالثة ثانوى) كان إحساسى أن ذكائى عادى وربما أقل من العادى، ويشهد بهذا أدائى المدرسى. ومع هذا، قرر الأستاذ روفائيل أن لدىّ شيئًا ما، فوجدتنى مضطرًا ألا أُخَيِّب ظنه وأن أقدح زناد فكرى كى آتى بأشياء «عبقرية» كما هو مُتوقَع منى. وتحسن أدائى الدراسى بعد ذلك بسرعة أذهلتنى أنا شخصيًّا.

أما الأستاذ إميل جورج (الدكتور الآن) فكان هو بداية حياتى الفكرية الحقيقية. كان أستاذًا بمعنى الكلمة، درسنا على يديه **الفلسفة** فى التوجيهية (عام 1954/ 1955) وحبَّب إلينا مادته. كان يعرض لنا أعمق المسائل الفلسفية بطريقة بسيطة، وكان يبث الشك فى نفوسنا ولكنه لم يكن يقذف بنا فى هوة العدمية، ولولاه لضيَّعت من عمرى سنوات وسنوات، أقرأ ما أقرأ وأُراكم المعلومات دون إدراك لأبعادها ومعناها.

كانت **تجربتى مع التعليم فى مصر سعيدة للغاية** (باستثناء حصص الحساب اللعينة). وإلى جانب الدرس والتحصيل على يد مدرسين يحبون موادهم ويوصلونها بطريقة محببة للطلبة، كانت هناك حصص الألعاب والأشغال والرسم والموسيقى والفلاحة والخط.وبعد ذلك كله كان لدينا **وقت فراغ** نمرح فيه ونلعب.

والآن **أرتجف حين أفكر فيما يحدث لصغارنا فى المدارس ولشبابنا فى الجامعات**، الذين يُكَبَّلون بالكتب المعلوماتية الثقيلة (المطبوعة بشكل ردىء)، والذين يقضون كل وقتهم فى دراسة مواد ينسونها بعد مرور شهر، ولا تترك لهم أى مجال للعب أو التنفس، والذين يقابلون فى الفصل مدرسين يحولون الحصة المدرسية إلى دعاية لحشد التلاميذ للدروس الخصوصية. **كان التعليم فى مصر مجانيًا وممتعًا، وبالتدريج أصبح غير مجانىّ بسبب الدروس الخصوصية، ثم أصبح لا علاقة له بالتعليم**، إذ أصبح التعليم الآن هو اكتساب مقدرة اجتياز الامتحانات.

الثمرة الخامسة عشرة...

الإسكندرية وجامعتها

تخرجت فى مدرسة دمنهور الثانوية عام 1955، وذهبت إلى الإسكندرية أحمل إدراكى المُرَكب وثقتى بنفسى، وفجأة وجدت نفسى فى قلب مدينة مصرية اسمًا، غربية فعلًا. كنت أقطن فى الإبراهيمية التى كانت تعيش فيها جالية يونانية كبيرة، حتى بائع الخضر كان ينادى على بضاعته باللغة اليونانية، وفى بعض المطاعم لم يكن بُد من الحديث باليونانية أو الفرنسية. وإلى جانب ذلك كانت هناك نوادٍ للسينما تعرض علينا أحدث الأفلام الأوروبية، وحفلات موسيقية. **جو كوزموبوليتانى (عالمى غير منتمى لأى تشكيل حضارى) لا جذور له، يمكن أن يثرى الإنسان ويمكن أن يبتلعه.**

ذهبت إلى قسم اللغة الإنجليزية وآدابها، بكلية الآداب، حيث كان الجميع يتحدثون الإنجليزية، وكان كثير من الطلبة من أصل يونانى أو إيطالى، وحتى المصريين الخُلَّص كانوا أجانب، إذ كانوا لا يعرفون العربية ولا يعرفون إلا أقل القليل عن مصر. حتى جدول المحاضرات كان مكتوبًا باللغة الإنجليزية، ومقَسَّمًا إلى مربعات أفقية ورأسية لم أفهم منها شيئًا، فأصابنى الدوار.

*** التحـدى**

قررت التحرك بسرعة لأكتشف الآليات الجديدة المطلوبة لتحقيق البقاء، وأهمها **إجادة اللغة الإنجليزية**، فحبست نفسى فى غرفة لمدة شهر كامل لا أسمع إلا الإذاعات الناطقة بالإنجليزية ولا أقرأ سوى الجرائد والمجلات الإنجليزية. وعُدت بعد الفصل الدراسى الأول وقد تملكت ناصية اللغة بشكل أدهش أساتذتى. وفى الصيف، أحضرت أرتالًا من الكتب العربية التى تتناول تاريخ الغرب والفكر الغربى والفن الغربى والفلسفة الغربية، كما أحضرت ترجمات لعدد من المسرحيات والروايات، حتى يمكننى **تملك ناصية الخطاب الحضارى الغربى**، وحتى تتعمق معرفتى بالتقاليد الأدبية الغربية مثلما تملكت ناصية اللغة. وفى الفرقة الثانية التحقت بمدرسة إنجليزية لبضعة شهور حتى تصبح الإنجليزية لغة حية بالنسبة لى. وبذلك، أصبحت قادرًا على التحرك فى تلك الأوساط شبه المصرية والتعامل معها بكفاءة غير عادية رغم عدم احترامى لها!

الثمرة السادسة عشرة...

التعليم الجامعى الحقيقى والأستاذ الجامعى القدوة

كان قسم اللغة الإنجليزية فى الإسكندرية تجربة فريدة، فالتدريس فيه كان يأخذ شكل **محاضرات حقيقية، لا دروس إملاء**. كان الأساتذة يدخلون

ويُلقون محاضراتهم ويفسحون المجال للطلبة كى يطرحوا أسئلتهم. وكانوا يقبلون الرأى الآخر بصدر رحب، بل ويرحبون به.

وكانوا يطلبون منا أن نكتب **أبحاثًا حقيقية** ونقرأ المراجع ونستشهد بها فى مقالاتنا. وكانت **الأسئلة فى الامتحانات** تتطلب إجابة يُعمل فيها الإنسان عقله وخياله لا أن يجتر ما قاله الأساتذة من قبل. وكانت إجاباتنا تأخذ شكل مقالات طويلة يعرض فيها الطالب وجهة نظره. لم يكن أساتذتنا فى الإسكندرية يعرفون التهاون فى الدرجات، فالعملية التعليمية بالنسبة لهم كانت شيئًا جادًا ومهمًّا. كان عدد الطلبة صغيرًا يتناقص تدريجيًّا كل عام حتى يصل إلى عشرة أو أقل فى عام التخرج، بذلك كنا نتعلم المعرفة والسلوك القويم. ولهذا السبب حينما ذهبت إلى جامعة كولومبيا والتحقت بقسم الدراسات العليا، وجدت أن مستواى أعلى من مستوى كثير من الطلبة هناك.

كان **الدكتور محمود المنزلاوى** يلقى علينا محاضراته فى تاريخ الحضارة فى العالم، فيحدثنا بطلاقة وتلقائية عن كل شىء، ابتداءً من ملاحم هوميروس وانتهاءً بدكتور زيفاجو لباسترناك.

وكان **الدكتور محمد مصطفى بدوى يقرأ** معنا النصوص الأدبية ويرفض أى تعميمات لا تستند إلى استشهاد من النص، كان ذلك يضايقنى أحيانًا كثيرة، ولكنى تعلمت (أنا الذى أجيد التحليق فى عالم الفكر المجرد) أن أبحث دائمًا عن أرض راسخة، مهما حَلَّقْت. وكان كل من الدكتور المنزلاوى وبدوى يستضيفنى فى منزله ويعطينى الكتب ويعلمنى فن القراءة والحياة.

*** أستاذتى... الدكتورة نور شريف**

أما الدكتورة نور شريف، رئيسة القسم، فهى إنسانة على قدر كبير من الثقافة والحكمة. كانت محاضراتها فى الأدب والشعر متعة حقيقية، إذ كانت

محاضرات حوارية بالفعل، تناقش معنا النصوص الأدبية وتفسرها تفسيرًا واسعًا يتضمن العناصر الجمالية والتاريخية والأخلاقية.

كانت الدكتورة نور على قدر كبير من **الالتزام برسالتها كمعلمة: أن تسهم فى بناء هذا البلد عن طريق تعليم أبنائه. لم تكن تخضع أبدًا للضغوط الخارجية** لتحافظ على رسالتها، فعندما أرسلت رئاسة الجمهورية تسأل عن سبب الرسوب المتكرر لأحد الطلبة الواصلين الوصوليين، كان رد د. نور أن نجاح ورسوب مثل هذا الطالب ليس شأنًا من شئون رئاسة الجمهورية، كان هذا عام 1962، حينما كان الجميع يرتعدون خوفًا من المخابرات. ومرة أراد العميد أن يعرف نتيجة إحدى الطالبات قبل إعلانها، فاستشاطت غضبًا وأعطت النتيجة للفراش ليعلنها، وأخبرت العميد فى الوقت نفسه أن فلانة التى يسأل عنها قد رسبت فى ثلاث مواد.

لاحظت ابنتى نور (التى سميتها باسم أستاذتى) أن أصدقائى من الإسكندرية لهم طابع خاص، فأخبرتها أن هذه هى بصمات د. نور وقسمها. وسألتنى مرة د. نور شريف عن أهم مصادرى الفكرية، فكان ردى ضاحكًا هو: نور شريف. ثم أضفت بشكل جاد: إننى على مستوى من المستويات أعنى ما أقول. ولا يمكن أن أتخيل نفسى دون هذه المرحلة من حياتى التى تعلمنا فيها كيف نفكر وننقد ونكتب.

الثمرة السابعة عشرة...

العالمية فى الفكر تنطلق من المحلية والتراث

ومن أهم أساتذتى فى الإسكندرية الشاعر الإنجليزى البروفسير جون هيث ستبس John Heath Stubbs. أذكر أن فى امتحان أدب القرن السابع عشر كان هناك سؤال عن **مصادر شخصية الشيطان والموت والخطيئة** فى

ملحمة الفردوس المفقود Lost Paradise لجون ميلتون John Milton، لملمت أطراف شجاعتى وقارنت بين لندن التى عاش فيها جون ميلتون ودمنهور التى عشت فيها، فبيَّنت أن الشاعر الإنجليزى حين كتب ملحمته كان عصر النهضة قد بدأ بالفعل منذ قرن ونصف القرن، لكننى أشرت إلى أن الرأى السائد (آنذاك) الخاص بأن العصور الوسطى المظلمة اختفت فى اليوم التالى تقريبًا لعصر النهضة هو اختزال مخل للأمور، ولذا مع أن ميلتون كان يعيش حقًا فى أواخر عصر النهضة فمن المحتمل أن يكون قد احتك بشكل يومى بكثير من الأشكال الحضارية من العصر الوسيط (تلك الأشكال التى استمرت لعدة قرون بعد عصر النهضة)، وأن من ضمن هذه الأشكال مسرحيات الأخلاق التى تحتوى على شخصيات مثل الشيطان والموت والخطيئة. قارنت تلك المسرحيات بمواكب الحرفيين التى كانت تخرج احتفالًا برؤية هلال رمضان والتى شاهدتها فى دمنهور حتى الخمسينيات والتى تعود ولا شك إلى عصور سابقة.

فوجئت بأن البروفسير ستبس قد أعطانى النهاية العظمى، إذ إن ما قلته كان جديدًا تمامًا. وازدادت جرأتى بعد تلك الواقعة، **وتعلمت كيف أستند إلى تجربتى الخاصة ولا أنكرها وإلى تراثى ولا أتنكر له، بل أوظفهما فى عملية الإدراك والتفسير، كما ازددت إيمانًا بمقدرة العقل والخيال على التوليد.**

*** بحوثنا تتنكر لهويتنا العربية والإسلامية**

منذ عدة سنوات، كتبت تقريرًا لكلية الآداب بجامعة الملك سعود بينت فيه أن من أكبر **آفات البحث العلمى فى العالم العربى** انفصاله عن المعجم الحضارى الإسلامى وافتراض أن ثمة معرفة عالمية علينا أن نُحَصِّلها متناسين تراثنا وهويتنا، وأشرت إلى أنه لن يمكننا أن نبدع طالما استنمنا لهذه المقولة، فهى تعنى المحاولة الدائمة «للحاق بالغرب» (فالعالمى فى

منظورنا هو الغربى). وضربت مثلًا بما يدور فى أقسام اللغات الأوروبية فى العالم العربى، وكيف أننا ندرسها من وجهة نظر أصحابها **ونستبعد هويتنا الحضارية ومعرفتنا العربية والإسلامية**.

وحلًا لهذه المشكلة، اقترحت **تشجيع الباحثين على الانطلاق من منظور عربى إسلامى** يساعد الباحث على اختيار موضوعات جديدة يترجم إبداعه من خلالها، كما يساعده على أن ينظر إلى الغرب باعتباره تشكيلًا ضمن تشكيلات حضارية أخرى وليس التشكيل الحضارى المطلق، لذا فليس على المرء قبوله (كما يفعل دعاة التغريب) أو رفضه (كما يفعل بعض المتشددين)، وإنما يمكننا أن ندرسه كتجربة حضارية تتسم بما تتسم به الحضارات من سلبيات وإيجابيات.

الثمرة الثامنة عشرة...

تأخر النضج الفكرى فى الشرق

يمكن القول أن شباب الأجيال المعاصرة فى الغرب يصلون إلى سن الإنتاج الفكرى وهم بعد فى العشرينيات، فهم لا يضيعون وقتهم فى المدارس الابتدائية والثانوية، بل يزدادون فيها علمًا ويكتسبون خبرة. كذلك فإن مستوى التعليم الجامعى مرتفع هناك، يسمح بإعداد الطالب للحياة الفكرية المثمرة فى هذه المرحلة. وبعد إتمام المرحلة الجامعية ينتقل المتفوق منهم بسهولة إلى الدراسات العليا، دون تعقيدات لا نهاية لها ودون هموم مالية (فالمنح الدراسية تتكفل بهذا فى كثير من الأحيان). كل هذا يقف على طرف النقيض من الوضع عندنا، إذ علينا أن **نكافح ضد نظام تعليمى مُعَوِّق** (ازداد سوءًا وشراسة فى الآونة الأخيرة).

إن الدارس فى الغرب لا يحتاج لإعادة صياغة مفاهيمه وأفكاره، فهى

نابعة من التشكيل الحضارى والاجتماعى الغربى (طبيعة مجتمعهم)، ومن ثم يمكن تطبيقها على واقعهم. وفى المقابل **على الباحث العربى أن يعيد صياغة مفاهيمه**، حتى لا يستمر فى تبنى مفاهيم لا علاقة لها بواقعه الحضارى والاجتماعى، وبالتالى غير قادرة على دراسة هذا الواقع والإسهام فيه.

إن تأخر تكوين المثقف فى العالم العربى يؤثر فى التنمية، يتساقط الكثيرون أثناء العملية التربوية، ومن يخرج منها سليماً تكون سنوات عطائه محدودة للغاية.

داء التـأمـل

الثمرة التاسعة عشرة...

التأمل: موهبة فطرية

*** حياتنا هى الوقت**

إن أهم العناصر التى ساعدت على اتجاهى لعالم الفكر ما أسميه «**داء التأمل**» الذى أصبت به فى بدايات الصبا، إذ أدركت أن «**حياتنا هى الوقت**». وبناءً عليه كنت مثلًا أطلب من إحدى الخدم أن تُحضر لى حذائى (توفيرًا للوقت، وبالتالى «إنقاذًا لحياتى»)، وعندما اكتشَفَت والدتى هذا الأمر أعطتنى علقة ساخنة؛ فأخلاقيات الريف لا تعرف تقسيِّم الناس بشكل حاد إلى أسياد وخدم، وعبثًا حاولت أن أشرح لأمى أن المسألة ليست «عنطزة» أو «منظرة»، وإنما هى إحساس عميق بالوقت!.

وقد أكسبنى هذا الإحساس **الحفاظ على كل دقيقة وثانية**؛ أحمل فى جيبى دائمًا أوراقًا لأكتب فيها أو كتبًا لأقرأها. وإن وجدت نفسى واقفًا

أصنع الشاى وعلىَّ انتظار الماء حتى يغلى، أؤدى بعض التمرينات الرياضية حتى لا أضيع هذه الدقائق، وكثيرًا ما أضع لنفسى جداول عمل مستحيلة التحقيق.

الثمرة العشرون...

التأمل... الطريق إلى الحقيقة

بعد هذا الإدراك العميق لمفهوم الوقت، بدأت **أتأمل كل شىء يحدث لى، وأمارس الحزن والفرح من خلال تأملاتى**. أدركت أن الحقيقة «كامنة فى الظواهر التى تمر بنا»، يشعر بها الإنسان من خلال خفقات قلبه ونبضات عروقه، لكى يصل المرء إلى جوهرها وكليتها فلا يمكنه ذلك إلا من خلال الوجدان والقلب، لذلك لا يفوز بها إلا الذين يملكون القدرة على التأمل.

وقد لازمنى داء التأمل طوال حياتى، **ولم يولَد الإيمان داخلى إلا من خلال رحلة عقلية طويلة**، لذا فإيمانى «إيمان تأملى عقلى»، لم تشارك فيه عناصر روحية، فهو **إيمان يستند إلى إحساس بعجز المقولات المادية عن تفسير ظاهرة الإنسان وإلى ضرورة اللجوء إلى مقولات فلسفية أكثر تركيبية**.

هذا لا يعنى أننى تحررت تمامًا من التفكير العقلى المجرد، فهذا مُكَوِّن أساسى فى شخصيتى. ذات مرة قابلت إحدى طالباتى الحوامل وسألتها متى سترزق بالمولود، فقالت: «بعد شهرين». وبعد شهرين، قابلتها فى القسم فسألتها هل رُزقت ولدًا أم بنتًا؟، ففوجئت بضحكات الطالبات العالية، فالطالبة الحامل لم تكن قد وَلَدَت بعد! لكننى قمت بعملية حسابية عقلية دون أن أرصد الواقع المباشر. ولعل هذه القدرة على الانفصال المؤقت عن الواقع هى التى مكنتنى من الصمود لكتابة الموسوعة فيما يزيد على ربع قرن.

الثمرة الحادية والعشرون...

الغرق فى بحر التأمل.

وللتأمل جانبه المظلم، فهو **يفصلنى عن الواقع ويجعلنى أعيش فى عالمى الفكرى والأسطورى الخاص**، ويظهر ذلك فى تلك الواقعة: كنت فى الولايات المتحدة عام 1975 أكتب كتابًا باللغة الإنجليزية عن الصهيونية ومستغرَقًا تمامًا فيه، ثم اتصلت بى زوجتى وأخبرتنى أن بعض اللصوص هاجموها واختطفوا حقيبتها وفروا، وأنها ستتأخر حتى تنتهى الشرطة من التحقيق. وبعد ساعة وصلت إلى المنزل ولم أتحرك من مكانى وواصلت الكتابة، فانفجرت باكية فأدركت جرمى، واعتذرت لها عما فعلت.

ولا أدرى هل هذا التأمل المستمر هو المسئول عن أننى كنت فى طفولتى أفقد النقود التى تعطيها لى والدتى لشراء أى شىء. وما زلت أفقد نظارتى فى منزلى وأُكوِّن فِرَقًا للبحث عنها.

الثمرة الثانية والعشرون...

التأمل والترميز والطقوس

منذ طفولتى وصباىّ كانت بعض الأشياء تكتسب **قيمة رمزية** فى عقلى غير قيمتها الوظيفية. كنت أتصور أن المكرونة هى طعام أهل الجنة، ولذا كنت آكل منها لا بمقدار حاجتى الغذائية المادية، وإنما بمقدار حاجتى النفسية أو العاطفية أو حتى الروحية إن صح القول.

أما الأرز، فكان مرتبطًا فى ذهنى بالطمأنينة وبالعودة إلى دمنهور، ولذا بعد عودتى من رحلاتى المدرسية كنت أطلب من أمى أن تطبخ لى بعض الأرز الذى لم يَعُد طعامًا أملأ به معدتى، وإنما مسألة ذات دلالة رمزية.

وكثيرًا ما تكتسب موضوعات الكتب التى أكتبها بُعدًا رمزيًّا، يجعل منها جزءًا من معركة الإنسان مع كل ما يتهدده. على سبيل المثال، تحولت الموسوعة إلى معركة الإنسان ضد الظلم. وأتصور أن هذا الميل نحو الترميز ساعدنى كثيرًا على الانفصال عن بيئتى المباشرة، **إذ خلقت لى الرموز عالمى الخاص.**

ومن نتائج التأمل كذلك، تبنى الإنسان **طقوسًا خاصة** يلجأ إليها فى أوقات معينة، كما حدث عند وفاة والدى ووالدتى، كما سأذكر فيما بعد.

ومن أهم الطقوس فى حياتى **طقس «ساعة الصفاء»**، وهو المقدرة على أن **يعيش الإنسان لحظات خارج الزمان، ومن ثم يمكنه أن يستعيد تكامله وإنسانيته** (بعد أن يكون قد فَقَدَ بعضًا منهما فى معترك الحياة وتفاصيلها التى لا تنتهى)، بشرط أن يظل الإنسان واعيًا تمامًا بأن هذه لحظات مؤقتة وحسب ومن ثم فهى ليست هروبًا من الواقع.

وقد تعلمت أنا وزوجتى أن نمارس لحظات الصفاء هذه، مهما كانت الحياة قاسية علينا. ساعتها نطلب من أولادنا أن يبتعدوا عنا بعض الوقت، ونجلس وحدنا نحتسى القهوة وأدخن سيجارًا، فتتجدد العلاقة المباشرة بيننا ولا تضيع منا فى الزحام والتفاصيل.

القارىء الكريم...

ألا ترى معى أن أرقى طقوس الصفاء وأكثرها فاعلية أن يقف الإنسان بين يدى الله ﷻ مُصَلِّيًا أو قارئًا للقرآن.

الثمرة الثالثة والعشرون...

تأملات حول الحب والزواج

إذا كان الحب الرومانسى الحالم يوجد خارج الزمان (خارج المحسوس والمحسوب)، فكيف يمكن لمن يحب بهذه الطريقة اللازمنية أن يتزوج ثم

يترك من يحب ويذهب إلى عمله؟ وكيف ينشغل بالأولاد ومشاكل الحياة؟ كثيرًا ما تلح علىّ هذه الأسئلة.

أُلاحظ أن أبناء هذا الجيل، نظرًا لأنهم يتبنون عن غير وعى هذا **الحب اللازمنى** (فهذا ما تتحدث عنه الأغانى والأفلام، وما تروِّج له أجهزة الإعلام)، يصبحون غير قادرين على التعايش داخل مؤسسة الزواج، فكل فرد متوجه بشكل حاد نحو السعادة الفردية ونحو اللذة، مما يجعل التعايش مع الآخر داخل إطار واحد (الأسرة بمسئولياتها) مسألة مستحيلة، أو شبه مستحيلة.

* السعادة كالعمل الفنى... تحتاج إلى الإبداع

من خلال تأملاتى لتجاربى وتجارب الآخرين أصبح عندى رؤية ومفهوم للزواج. أرى **أن السعادة لا تهبط هكذا من السماء، وإنما هى مثل العمل الفنى، لا بد أن يكد المرء ويتعب فى صياغته وصنعه**. والزواج، مثل العمل الفنى أيضًا، ومثل أى شىء إنسانى مركب، يحتوى على إمكانات سلبية وإيجابية، ولا يمكن فصل بعضها عن بعض. وكثيرًا ما كنت أخبر طالباتى بأن **الحب الحقيقى هو أن يَقبل الواحدُ الآخرَ ويعرف أن محاسنه مرتبطة تمام الارتباط بعيوبه**. وأرى أن **من الضرورى أن يشترك الزوجان فى نقط الانطلاق والمثاليات وسلم الأولويات الأساسية**، فالتعارض على هذا المستوى يُوَّلد توترات لا يمكن لمؤسسة الزواج تحملها.

ومن الطريف أننى كنت أتصور أننى تزوجت من د. هدى لأنها مختلفة فى كثير من النواحى عن أمى، ولكنى اكتشفت ـ بعد قدر من التأمل ـ أنها تشبهها فى كثير من النواحى.

كما طوَّرت مفهوم «**إعادة الزواج من نفس الزوجة**»، إذ تتغير الظروف والأوضاع وتتغير الشخصية والتوقعات، فيُعاد النظر فى العلاقة ويُعاد

تشكيلها بما يتفق مع الرؤية الجديدة. وأزعم أننى تزوجت من زوجتى ثلاث مرات، المرة الأولى التقليدية، والثانية بعد حصولى على الدكتوراه، والثالثة بعد حصولها هى على الدكتوراه. ولعل هذا المفهوم يحل بعض المشكلات التى يقابلها الناس فى زيجاتهم، إذ يتصور كل طرف أن الآخر نمط محدد لا يتغيَّر، ومن ثم فالتوقعات والأحزان والأفراح لا تتغيَّر، وهو تصور غير إنسانى، فثمة قدر من الثبات فى حياة الإنسان ومن ثم فى شخصيته، ولكن ثمة قدرًا من التغيُّر أيضًا، ولا بد أن يأخذ الإنسان هذا فى الحُسبان.

الوعى بالموت والمرض

الثمرة الرابعة والعشرون...

الوعى بالموت

كان للموت مهابته ووقاره فى دمهنور التى نشأت فيها. فالموت، فى المجتمعات التقليدية، شأنه شأن الحياة، **أمر مهم وخطير لا يتحمل الدعابة أو الهزل، وفى نفس الوقت كان الناس يقبلونه كأمر طبيعى من أمور الحياة.** حينما تمر جنازة كان الجميع يتوقفون عن البيع والشراء ويتسابقون لحمل النعش والقيام بواجب العزاء، وإن مررنا على القبور كنا نقول: «السلام عليكم دارَ قوم مؤمنين، أنتم السابقون ونحن إن شاء الله بكم لاحقون». وكانت **زيارة المقابر** جزءًا من حياة الناس اليومية، يزورون فى المناسبات والأعياد من مات من أهلهم وأقاربهم، تمامًا مثلما نزور نحن الأحياء.

كانت جدتى نازلى ـ رحمها الله ـ تُعِدُّ نفسها فى السنوات الأخيرة من حياتها لمنزل العودة، فبدأت فى توزيع ما تبقى لها من متعلقات الدنيا. ومرة لمحت فى دولابها الخشبى المتهالك قماش كفنها الأبيض والأخضر. أما أمى فكانت آخر رغباتها ألا تُدفن إلا فى مدافن أهلها.

ويمكن مقابلة ذلك بموقف الأمريكيين من الموت **ورفضهم الشديد له وخوفهم العميق منه**، ويعتبر هذا علامة على عدم النضج، بل ورفضًا عَميقًا للحياة الإنسانية.

ويبدو أن الموت فى مجتمعنا قد تم استيعابه أخيرًا فى نفس **النمط التنافسى** الذى تم استيعاب الأفراح فيه. ففى صفحة الوفيات توجد تعازى الأثرياء فى مربعات كبيرة، أما تعازى الناس العاديين فتوجد فى الأعمدة التقليدية، كما يتم تصوير الجنازات بالفيديو بعناية فائقة !.

وكعادتى، فقد **اتخذت تجاه الموت موقفًا فلسفيًّا يدفعنى للتأمل، مع الاحتفاظ بمسافة بينى وبين الأحداث**. حينما **توفى والدى**، كنت فى الولايات المتحدة، فذهبت إلى نيويورك وحضرت مسرحية برخت «الاستثناء والقاعدة» كطقس جنائزى لوالدى، ولكنى لم أبكه إلا بعد زيارتى لقبره فى دمنهور. وعندما ذهبنا لتشييع **جنازة والدتى**، ظللت صامتًا (مما أثار دهشة من حولى)، ولكنى انفجرت باكيًّا عند قبرها ثم لزمنى الصمت وغصت فى التأمل، ثم أحييت المناسبة بأن شربت المشروبات التقليدية التى كانت تحبها (التيليو والحلبة والآنسون ومنقوع ورق الجوافة). ويبدو أن مقدرتى على التجريد كانت وراء الملاحظة الغبية التى قدمتها لصديق ذهبت أعزيه فى وفاة والدته، إذ أخبرته أن أمهاتنا قد بلغن السن التى يتوقع فيها الإنسان موتهن. فنظر إلىَّ بدهشة، فاعتذرت له وقلت: «البقية فى حياتك».

وقد **أحسست بالموت إحساسًا جماليًّا** حين رأيت لوحة جميلة رسمها فنان صينى لشجرتين من نبات البامبو (البوص) تعلو كلًا منهما زهرة ملونة جميلة. وقال الفنان فى شرحه للوحة: إن هذا النوع من البامبو يظل ينمو لمدة تسعة وثلاثين عامًا ثم يزهر زهرته فى العام الأربعين ويموت بعدها. فسُحرت بهذه الفكرة وغرقت فى التأمل فيها، وقررت أن أسافر إلى الصين لمشاهدة حقول البامبو هذه حينما تُزهر.

الثمرة الخامسة والعشرون...

إدراك المرض: ليس من سمع كمن رأى، وليس من رأى كمن ذاق

يوم أن انتهيت من الموسوعة، حدث ما زلزل كيانى، إذ مات زوج ابنتى. وقد لاحظت فى ذلك اليوم أننى بدأت أفقد المقدرة على النطق أحيانًا، ثم بدأت أشعر بدوار كلما فكرت أو مارست أى مشاعر إنسانية حادة، وقد سقطت مرتين أو ثلاثًا على الأرض. ويبدو أن **مرضى كان فى معظمه نفسيًّا**، نتيجةً للخبر الذى وصل إلىَّ وأنا مُنهك القوى تمامًا بعد الانتهاء من الموسوعة.

تمرد جهازى العصبى علىّ وأخذ يتصرف بإرادته مستقلًا عنى بعد أن وضعته داخل ثلاجة مدة ربع قرن، إذ قرر أن يستجيب وبحدة لأى شىء دون تدخل واعٍ منى. فكنت حين أود عبور شارع ما يخاف جهازى العصبى، رغم معرفتى الواعية أن العبور لن يسبب لى ضررًا، فكانت قدماى لا تتحركان، وكنت أضحك من توقفى. ومرة قبَّلنى طفل صغير، فتأثر جهازى العصبى كثيرًا وأُصبت بدوار شديد كدت أسقط على أثره. ومرة أخرى رأيت خادمة صغيرة تحمل أثقالًا، فحزنت من أجلها، وأصبت بما يشبه الشلل، وهكذا.

نصحنى أحد أصدقائى **بالرضا بحُسبانه مدخلًا للشفاء**. وبالفعل، قبلت حالتى وبدأت رحلة الشفاء منذ تلك اللحظة، فخلدت إلى الراحة التامة لأول مرة فى حياتى تقريبًا، وقضيت إجازة شهرين أمام البحر، امتنعت خلالها قدر طاقتى عن التفكير حتى استرددت جزءًا كبيرًا من عافيتى، وأشير لهذه الفترة من حياتى **بالزلزال أو الكابوس**، وذقت طعم المرض والموت لا كمقولات مجردة وإنما كتجربة عشتها بنفسى.

*** علم اليقين، عين اليقين، حق اليقين**

يُطلِق السادة الصوفية مصطلح «علم اليقين» على الأمر إذا أحطت به معرفةً (كأن تقرأ عن المرض)، أما إذا شاهدت الأمر فقد صار «عين اليقين» (كأن ترى مريضًا)، فإذا ذقته وعايشته صار «حق اليقين». ويبدو أن الله سبحانه وتعالى بعد أن ترسّخ فىَّ الإحساسُ بالموت، **أراد أن يُرسخ فىَّ أيضًا الإحساس بالمرض العضوى.**

بعد أن شُفيت تمامًا من الدوار الذى كان يصيبنى، شعرت بألم خفيف فى ظهرى ثم تدهورت الأمور بسرعة خلال يومين أصبحت بعدهما عاجزًا تمامًا عن الحركة. وقد تبين فيما بعد وجود **ورم نتيجة مرض يُسمَّى (ميلوما أحادية)** Solitary Myeloma، وهو شكل من أشكال السرطان الذى يصيب خلايا البلازما Plasma Cells فى نخاع العظام، وهو سرطان يأكل العظام والأنسجة المحيطة، وقد قام الورم بتهشيم الفقرتين الصدريتين الرابعة والخامسة فى عمودى الفِقَرى فانهارتا منذ مدة طويلة دون أن أشعر وبدأتا تتشكلان مرة أخرى، وبقى الورم هناك سنوات طويلة ولم يهشم غيرهما (كرم الله ولطفه)، ثم بدأ يضغط على الحبل الشوكى إلى أن توقف نصفى السفلى تمامًا.

وأُجريت لى عملية جراحية فى الفقرة الخامسة (تسمَّى لامينكتومى Lamenectomy)، يتم فيها استئصال أجزاء من الفقرة لتخفيف الضغط عن الحبل الشوكى.

بدأت أقرأ عن الميلوما وعن السرطان بشكل عام، فوجدت أن المنهج الذى يتبناه الطب الآن هو **التعايش مع السرطان** إن لم يمكن القضاء عليه. كما فهمت أنه من المستحسن تأجيل تعاطى الأدوية القوية أو إجراء عملية

زرع النخاع autologous bone marrow transplant. وفى هذه العملية يقومون بأخذ الخلايا الأم أو الخلايا الجذعية stem cells من نخاع عظام المريض نفسه ثم ينظفونها من الخلايا السرطانية، وبعد ذلك يقومون بإعطاء المريض علاجًا كيمائـيًا قويًا يقتل كل ما تبقى من خلايا نخاعه (مما يضعف جهازه المناعى تمامًا)، ثم يقومون بحقن المريض بخلاياه الجذعية، ويتبعون ذلك بإجراء التحاليل ليرصدوا ما إذا كانت الخلايا قد زُرعت أم لا. وبرغم البساطة الظاهرية للعملية فهى مكلفة للغاية.

وحيث إن التدهور فى حالتى الصحية بدأ يوم أن انتهيت من الموسوعة، فقد انتشرت شائعة طريفة فى القاهرة مفادها أن الموساد هى التى تسببت فى إصابتى بالمرض.

الثمرة السادسة والعشرون...

الطب التعاقدى فى الولايات المتحدة: عقدة جوبيتر ود. فرانكشتاين

عندما اشتد علىّ المرض ذهبت إلى الولايات المتحدة لإجراء عملية زرع النخاع، وبدأ علاجى على يد دكتور أليكسنيان Alexenian، وهو من أشهر المتخصصين فى الميلوما فى العالم، وحين قابلته لأول مرة كان لطيفًا للغاية، وسألنى عن الشاعر الإنجليزى المفضل لدى، ثم أخبرنى أنه يمكن إجراء عملية لى لأن عمرى دون الخامسة والستين وعندى من المال ما يغطى التكاليف (أخبرهم المكتب الصحى التابع للأمير عبد العزيز بن فهد إنه سيتكفل بدفع التكاليف). ويمكن القول إن **هذه المقابلة نصفها تراحمى والنصف الآخر تعاقدى** فما قاله عن تغطية التكاليف لم يكن له أى مبرر، فهو أمر كان معروفًا لدى ولديه. وتم إجراء العملية.

وحين ذهبت لإجراء الفحص السنوى فى العام التالى، وجدت د. أليكسنيان تعاقديًا بشكل رهيب، ينطبق عليه ما يسمى بالـ Jupiter complex أى عقدة

جوبيتر. وجوبيتر هو الاسم اليونانى للإله زيوس، كبير الآلهة. **فالطبيب المصاب بهذه العقدة يتصور أنه إله**. كنت جالسًا على الكرسى أنا وزوجتى، وحين دخل د.ألكسينيان قمت احترامًا له، لعلمه وسنه، ولكن بدلًا من أن يصافحنى جلس على مكتبه وسألنى لِمَ وقفت؟ فأجبته عن سؤاله، فلم يعلق وقال: إنه تمرين رياضى لا بأس به، ومفيد للعضلات، أى أنه **حول تحيتى التراحمية إلى شىء يخصنى وحدى ويعود على بالفائدة العضلية، أى المادية**. ثم أخبرنى أننى من خلال عملية نقل النخاع وصلت إلى ما يسمى «الكمون الجزئى»، الأمر الذى يعطينى 4 سنوات من العمر، فابتسمت وقلت لزوجتى ضاحكًا هذا يعنى أننى يجب أن أنتهى من مشروعاتى الفكرية فى ثلاث سنوات ونتنزه سويًا فى السنة الرابعة والأخيرة. ففوجئت بالدكتور ألكسينيان يقول: «أنا لم أقل إنك ستعيش مدة أربع سنوات فقد تموت بعد ستة شهور « فسألته: «هل هذا له علاقة بالميلوما؟»، قال: «لا، لكن يمكن أن تصاب بالأنفلونزا أو أى مرض آخر «فضحكت وقلت له: «عندنا فى القاهرة يمكن أن تقوم عربة ميكروباص أو نص نقل بهذه المهمة فى أقل من 24 ساعة» (أى حاولت أن أخبره بطريقة علمانية أن **الأعمار بيد الله**).

وقد نبهنى أحد أصدقائى المتخصصين إلى أن د.ألكسينيان يبالغ فى الأمور، إذ أنهم فى بعض المراكز الطبية **يفضلون سمعة المركز على صحة المريض**، لذلك يقومون بتغطية أنفسهم خوفًا من التقاضى، حتى إن بعض الأطباء يتركون مهنة الطب تمامًا، لتزايد التأمين المطلوب منهم دفعه، بقدر لا يتناسب البتة مع أرباحهم، كما أخذ بعض الأطباء يرفضون علاج أى شخص يعمل فى مجال المحاماة أو أى مريضة متزوجة من محام.

كنت أسمى دكتور ألكسينيان، د.فرانكشتاين (إنسان مُخَلَّق شرس قام بقتل صانعه)، بسبب موقفه التعاقدى المحايد الذى حولنى إلى موضوع ومادة إستعمالية. ولكن ـ والحق يقال ـ إنه غيّر موقفه تمامًا فى المرة التى تليها،

فكان إنسانيًا تراحميًا إلى أقصى درجة، فقد قضى معى ساعة كاملة، وذكر لى خطة العلاج وفلسفتها، كما طمأننى إلى أنه يَجِّد جديد كل عام وربما يظهر فى القريب دواء جديد أكثر فاعلية. ثم تحدث معى عن الشِعر مرة أخرى وعن أحوال العالم، فتساقط قناع د. فرانكشتاين وتم تقويض مركب جوبيتر **وفاض نهر التراحم الإنسانى ليمحو انطباع التعاقد غير الإنسانى.**

الثمرة السابعة والعشرون...

التأمل والمرض: الطب البديل ومعجزات الشفاء

لم أكتف بالطب التقليدى بل لجأت إلى أنواع من الطب البديل؛ كالعلاج بالأعشاب والإبر الصينية، ولا أدرى هل استقرت حالتى بسبب الطب التقليدى أم الطب البديل أم بمزيج منهما. ومما شجعنى على الاستعانة بالطب البديل أن أستاذًا للشعر الإنجليزى (متخصص فى الشعر الرومانسى مثلى تمامًا) فى جامعة أكسفورد يدعى Michael Gearin Tosh أُصيب بمرض الميلوما وأخبره الأطباء أن أمامه ستة شهور، وأنه لو لجأ للعلاج الكيميائى فسيموت فورًا، **فكذب نبأ وفاته**، وبدأ رحلة علاج مع أنواع مختلفة من الطب البديل. وبعد مرور عشرة أعوام من نبوءة وفاته كتب كتابًا بعنوان «برهان حى: تمرد طبى A Medical Mutiny: Living Evidence» يسجل فيه تجربته مع الطب العادى والطب البديل!. ومن أطرف ما جاء فى كتابه ما يسمى «**التخيل الصينى**»، وهو أن يتخيل الإنسان نفسه مع أحد أصدقائه وقد نزلا سويًا فى شرايينه ليحارب الخلايا السرطانية ويبدأ فى ضربها حتى تقع ميتة، فكنت أقوم بهذه التمارين. وعلى أى حال كان الأطباء يخبروننى أن 80٪ من العلاج يتوقف على حالتى النفسية وعلى الإرادة. وقد نَوَّه الأمير تشالز، ولى عهد بريطانيا، فى إحدى أحاديثه باستخدام الطب البديل، فهاجت وماجت المؤسسة الطبية التقليدية ضده!.

ومن أطرف الوقائع الطبية فى حياتى ما حدث لى فى **الجامع الأموى فى دمشق**. كنت قد قمت بأداء فريضة الحج أنا وزوجتى وقررت أن نذهب إلى سوريا لنزورها لأول مرة فى حياتنا، فاعترضت زوجتى بأننا بعد الحج سنكون مرهقين، لكننى أصررت على موقفى. وحين وصلنا إلى هناك أصبت بالحمى المالطية، وارتفعت درجة حرارتى بشكل ملحوظ، وبدأت زوجتى فى تعنيفى بسبب عنادى الشديد. وفى الجامع الأموى قررت أن أضع حدًا لعملية التعنيف هذه، فالتفت إلى السماء **ودعوت الله بصوت عال** أن يشفينى فى أسرع وقت، فاستجاب الله دعوتى على الفور، إذ بدأت أتصبب عرقًا بشكل ملحوظ، وانخفضت درجة حرارتى فى اللحظة نفسها. وفى طريق العودة مررنا على مدينة جرش حيث يقام مهرجان فنى كل عام، وتذكرت أن ماجدة الرومى كانت تغنى تلك الليلة، فاقترحت عليهم أن نعرج على المسرح لنسمعها، فرفض الجميع بسبب الإرهاق الذى كان قد ألم بهم، بينما أنا المريض كنت فى غاية اللياقة البدنية، وسبحان مغير الأحوال. إن ما حدث لا يمكن فهمه ولا يمكن تكراره (**وهذه هى بعض صفات المعجزة التى يُطلق عليها اصطلاح «صدفة»**).

الثمرة الثامنة والعشرون...

المرض والنضج الفكرى والنفسى

تعلمت أنا الذى لم أمرض مرة واحدة تقريبًا أثناء كتابة الموسوعة، كما أعددت عشرات المشروعات البحثية فور الانتهاء منها، بل وكنت أتحدث عن السيطرة على الجسد، **تعلمت محدودية الجسد الإنسانى ومحدودية المقدرة الإنسانية**. بدأت أتعاطف مع المعوقين أكثر من ذى قبل (وإن كنت اكتشفت أن الإنسان المُعَوَّق يعوض نقط النقص فيه من خلال كفاءات أخرى يطورها). وتعلمت أنه **لا يوجد مرض وإنما يوجد مرضى!** أى أنه لا توجد

قوانين عامة للمرض وإنما يوجد أشخاص يصابون بمرض ما ويستجيب كل واحد منهم له بطريقة مختلفة.

وأثناء مرضى غمرنى أصدقائى وتلاميذى بالمحبة؛ فعادنى عشرات منهم ووصل إلىَّ نهر جميل من الأزهار، كان يفيض من غرفتى على بقية المستشفى. وحينما كنت أسير فى شوارع لندن، كان كل الناس يساعدونى، وحينما أركب إحدى وسائل المواصلات العامة يتركون لى مقاعدهم، ففى الشدائد يظهر المعدن الإنسانى الأصيل. وذكرنى ذلك بما كان يحدث للناس فى الولايات المتحدة بعد العواصف الثلجية، كان الجميع يتكاتفون، وإن غرزت سيارة فى الثلج تقف السيارات الأخرى لمساعدتها، وإن غطى الثلج باب منزل يأتى الجيران لإزاحة الثلج، **فيسقط التعاقد تمامًا ويظهر جوهر الإنسان التراحمى**. وهكذا تعلمت، أنا الذى لم أعُدْ أحدًا فى مرضه إلا نادرًا، **أهمية أن يقف المرء إلى جوار الآخرين فى لحظات الشدائد**.

ورغم فجائية اكتشاف المرض إلا أننى **تقبلت هذا الخبر بكثير من الهدوء** والرضا، بل أننى حين كنت وزوجتى فى شيكاغو لاستشارة الأطباء نحدد مواعيد الأطباء بما يتفق مع جدولنا «**السياحى**». فقمنا بزيارة المتاحف والحدائق والمسارح، وقضينا واحدًا من أجمل شهور حياتنا الزوجية.

مع المادية والماركسية

الثمرة التاسعة والعشرون...

*** بذور الشـك**

حينما كنت فى السنة النهائية فى مدرسة دمنهور الثانوية، وأنا بعدُ فى السادسة عشرة، بدأت بعض الأسئلة الأساسية تهاجمنى وبإلحاح شديد.

وكان من أهمها أسئلة خاصة بأصل الشر فى العالم والحكمة من وجوده، وعن أصل الكون. وكان هذا العام أول عام أدرس فيه مادة الفلسفة، وقد خلبت هذه المادة لبى تمامًا، وساعدتنى على تنويع أسئلتى وتعميقها وصياغتها بطريقة متبلورة.

وأذكر أننى قرأت قصيدة قصيرة أعتقد أنها لكامل الشناوى، تقول:

يـا رب فيـم خلقتنـا وتركتنـا ... نَهْـب الظـلام فـلا ضيـاءَ ولا سـنا
وندبٌ فوق الأرض لا ندرى بها ... ونـدبٌ فـوق الأرض لا تـدرى بنا
أنا من أنا، أنا من أكون؟ وسـيلةٌ ... أم غايـةٌ، أنـا لسـت أعرف مـن أنا
وهـمٌ يسـاور ملحـدًا فيَرُوعـه ... ويخافـه مـن كان مثـلى مؤمنـا

والقصيدة ليست من عيون الشعر العربى، ومع هذا تركت فىَّ أثرًا عميقًا. لقد **جعلت الإيمان الدينى مسألة جبن وإحجام عن التساؤل**، وهذا ما لا يقبله من كان فى سنى وعقلى.

لم يكن أحد فى **أسرتى** قادرًا على أن يأتى بإجابة شافية لهذه التساؤلات، فمعظمهم كان يصلى ويصوم بحكم العادة والتقاليد، وبالتالى فالتساؤل الفلسفى يقع خارج نطاق تصوراتهم وأفكارهم. أما أقرانى فلم يكونوا فى مستوى الفكرى، ولذا عجزوا هم أيضًا عن محاورتى.

وفى نهاية الأمر ذهبت إلى **مدرس اللغة العربية (والدين)** أسأله، فاستخدم مفهوم السببية البسيطة؛ هذا العالم المخلوق لا بد أن يكون له خالق، وبذا فالأمور واضحة تمامًا، وهنا سألته ومن خالق الشر؟ كان رده فى غاية البساطة أيضًا، إذ قال إن العقل يعجز عن إدراك مثل هذا، وتركنى وحيدًا مع إجاباته البسيطة السهلة التى لم تشف لى غليلًا، بل قوَّضت من إيمانى. وبدأ التأمل، وانتهى بى الأمر إلى أن أعلنت أننى لن أصلى ولن أصوم إلى أن أجد إجابة عن أسئلتى.

وكان أعضاء أسرتى قد تعودوا منى مثل هذه التحولات (حيث إننى قبل عامين كنت قد انضممت لجمعية الإخوان المسلمين، وكنت أقضى وقتًا طويلًا من الليل فى قراءة القرآن مع أحد الخدم)، شتمنى والدى ولكنه تركنى وشأنى.

ثم اتسعت دائرة الحوار مع **بعض المثقفين** أثناء وجودى فى الإسكندرية. وكان فى كلية الآداب قسم اللغة الإنجليزية وآدابها مجموعة من الأجانب ممن لا يحجمون عن مناقشة مثل هذه الأمور بحرية بالغة مما أتاح أمامى الفرصة لطرح المزيد من الأسئلة إلى أن **أصبح الشك مكونًا أساسيًّا فى رؤيتى** .

*** شـك أم إلحـاد**

دارت مناقشة حامية الوطيس بين أعضاء **الندوة الشهرية** التى أعقدها فى منزلى، ويحضرها من يشاء من الشباب، حول طبيعة ما حدث لى بالضبط، هل **كان مجرد شك وبالتالى فهو بداية بحث، أم كان إلحادًا صريحًا؟** لقد رأى بعضهم أننى أصبحت «ملحدًا» بالفعل، وأشار البعض الآخر إلى أن إيمانى ببعض المطلقات الأخلاقية والإنسانية يتنافى تمامًا مع الرؤية المادية الخالصة (التى تشكل جوهر الإلحاد)، وأن هذه المطلقات هى تعبير عن وجود شىء ما وراء العالم المادى، وبالتالى فإن ما حدث هو أن **الشك قوَّض الإيمان البسيط. وبدأت رحلة البحث** وظلت مستمرة إلى أن بلورت لنفسى رؤية دينية جديدة لا تتسم بالبساطة والسذاجة.

هذا يعنى أننى كنت **أدور فى إطار نموذجين**: أحدهما **نظرى مادى** (معاد لفكرة الإنسان والأخلاق والقيم ولأى شكل من أشكال الثبات والإطلاق)، والآخر **عملى أخلاقى** (يستند إلى إيمان بمنظومة أخلاقية تضرب بجذورها فى عالم ما وراء المادة وتتجاوز عالم المادة) (**التجاوز بالمعنى**

العام هو «تخطى شيء ما وصولًا إلى ما هو أسمى منه»)، وأعتقد أن هذه الازدواجية هى التى تعمقت بعد ذلك وتبلورت إلى أن كان على أن أحسم الأمر وأصفى الازدواجية وأدخل عالم الإيمان والتركيب والثنائيات المتفاعلة (الله ـ الطبيعة، الروح ـ المادة).

الثمرة الثلاثون...

فراغ لم تملؤه إلا الماركسية

لقد خلق ما اعترانى من شك فراغ فى نفسى، فلم يعد من الممكن قبول الأطر القديمة، **وكان لا بد من أن يُملأ هذا الفراغ العقائدى (أو الأيديولوچى)**. وبما أننى كنت ثائرًا ضد الظلم الاجتماعى، كان من الحتمى تقريبًا أن **أتوجه للماركسية**، وقد أعطانى صديقى سعيد البسيونى بعض الكتب عن هذه الأيديولوجية، كما كان عند أصدقائى الأجانب كثير من الأدبيات الماركسية، ثم أُفتتحت المكتبات السوفيتية التى كانت تبيع الكتب السوفيتية والماركسية بأسعار رخيصة، فاشترينا الكثير منها، وبدأت أقرأ فيها بنهم.

كان اهتمامى بالماركسية فكريًّا فى بداية الأمر، إلى أن التقى بى أحد أعضاء حدتو (**الحزب الشيوعى**) وجنّدنى **عضوًا فى الحزب** عام 1955، وتم تصعيدى فى الحزب نظرًا لمعرفتى باللغة الإنجليزية والمصادر الأولية للفكر الماركسى. ومن الطريف أننى كنت بموضوعية وأمانة كاملتين أُبيِّن للرفاق فى الحزب أنه يجب ألا أُصَعَّد بسبب خلفيتى البورجوازية ولا بد من اختبارى والتأكد من «نقائى الأيديولوجى»! ومع هذا، استمروا فى تصعيدى، ووجدتنى مسئولًا عن خلية وعضوًا فى لجنة منطقة الرمل. ثم أصبحت مسئولًا حزبيًّا عن مصنع شربيط لتجفيف البصل فى الحضرة بالإسكندرية، وقد نجحت فى تنظيم إضرابًا للعمال.

ولكن ـ والحق يُقال ـ كنت أشعر بأن وجودى بين الرفاق كان نشازًا، إذ إن درجات الفقر بين بعضهم لم تكن تُصدَّق، وكانت تتزايد بسبب الإضراب، فكان كل هذا يصدمنى ويولِّد فىَّ إحساسًا عميقًا بالذنب بسبب مستواى المعيشى.

الثمرة الحادية والثلاثون...

الخروج من دوامات الماركسية

الفضل يرجع لسلوك الرفاق

بدأت ألاحظ أن **السلوك الشخصى للرفاق** كان متناقضًا مع أى نوع من المثاليات الدينية أو الإنسانية، وأن كمية **النرجسية** (الإعجاب بالذات) عند بعضهم كانت ضخمة للغاية. وأنا لا أُمانع فى وجود قدر من النرجسية عند البشر، فهذا أمر بشرى أساسى، خصوصًا بالنسبة للثائر، فالنرجسية آلية نفسية يدافع من خلالها عن نفسه ضد مجتمع يود ابتلاعه، ولكن النرجسية التى لاحظتها عند كثير من الرفاق كانت بالفعل متطرفة. كذلك كانت الحريات الأخلاقية التى كانوا يسمحون لأنفسهم بها كاملة، أى أنهم **فى واقع الأمر كانوا شخصيات نيتشوية داروينية، لا علاقة لها بالماركسية ولا بأى منظومة أخلاقية**، خاصةً أن ماركسية بعضهم كانت تنبع من **حقد طبقى أعمى** وليس من إيمان بضرورة إقامة العدل فى الأرض. بل كثيرًا ما كنت أشعر أن بعضهم كان ماركسيًّا بحكم وضعه الطبقى المتدنى وحسب، وأنه لو سنحت الفرصة أمامه للفرار من طبقته والانضمام للطبقات المستغلة الظالمة لفعل دون تردد وطلَّق ماركسيته طلاقًا بائنًا. لكل هذا **قدَّمت استقالتى**، وطلبت أن أُعَدَّ من أصدقاء الحزب لا من أعضائه.

ومن أطرف القصص التى رواها أحد الرفاق الفلسطينيين السابقين ما

حدث له مع مجموعة من الشيوعيين المتطرفين الغربيين: حضر هؤلاء إلى معسكر تدريب الفدائيين، وعندما بدأ الرصاص ينهال عليهم، بتدبير سابق، تصرفوا مثل كل البشر، فاختبأوا تحت السيارات، ولكن ما فاجأه هو أن كل واحد منهم بدأ يتلو أدعية دينية **ويطلب العون من الإله!**.

الثمرة الثانية والثلاثون...

الماركسية: بعض ما لها وما عليها

كان لتجربتى «الماركسية» القصيرة **جوانبها السلبية والمظلمة** دون شك، فاستخدام الصراع الطبقى ووسائل الإنتاج كمعيار نهائى، والبحث الدائب عن العمال والفلاحين بحُسبانهم قوى فاعلة ستغير التاريخ قد **جعلا رؤيتى للفكر والأدب رؤية قاصرة إلى أقصى حد**، وأعتقد أن هذا قد عاق تطورى الفكرى بعض الوقت.

من حسن حظى أننى لم أحضر **الفترة «الأُممية» (التى تضع الولاء للشيوعية فى مختلف الأمم فوق الولاء للوطن)** حين كانت صفوف الحزب تزخر بالأجانب وبأعضاء الجماعات اليهودية وبالحماسة للحرب ضد فرانكو فى إسبانيا مع إهمال الجهاد ضد الصهاينة فى فلسطين !، فقد كان هذا الجهاد يُعَدُّ سقوطًا فى قبضة الرجعية العربية (كان حل الصراع العربى الإسرائيلى ـ فى تصورهم ـ هو التحالف بين العمال والفلاحين اليهود والعرب ضد الرأسماليين والإقطاعيين العرب واليهود) !.

*** رب ضارة نافعة.**

كان لتجربتى الماركسية آثار إيجابية كثيرة، فقد أتاحت لى فرصة التعرف على بعض النماذج الإنسانية (النبيلة والنيتشوية) عن قرب (تؤمن الفلسفة

النيتشوية بأن الأخلاق هى سلاح الضعفاء فى مواجهة الأقوياء وأنه لا يمكن حسم أى خلاف إلا بالقوة)، كما أننى استوعبت بعض المقولات الماركسية مثل دور التاريخ واللحظة التاريخية فى تحديد مواقف الأفراد وتوجهاتهم.

وللماركسية نزعتان فكريتان متناقضتان: الأولى هى **النزعة المادية** المتطرفة التى ترى الإنسان باعتباره كائنًا ماديًّا وحسب، والثانية هى **النزعة الماركسية الإنسانية**، والتى تذهب إلى أن الإنسان ليس بكائن مادى وحسب، وإنما هو كائن مركب تدخل فى تركيبه عناصر مادية وأخرى غير مادية، ومن ثم فإن هناك قانونًا للإنسان وآخر للأشياء والحيوان. وأعتقد أن هذه النزعة الإنسانية هى التى حمتنى من السقوط فى المفاهيم اللاإنسانية (العدمية والحيادية وانعدام الاتجاه والاحتفال بموت الإنسان).

كما أن الماركسية دعَّمت من بعض الاتجاهات الكامنة داخلى، مثل **رفض الظلم والاستغلال**، وضرورة إقامة العدل فى الأرض، وأهمية أن يتجاوز الإنسان ما هو قائم وألا يذعن له (فالإذعان والقبول بالأمر الواقع هما جوهر الجمود والرجعية).

والأكثر من هذا، **زودتنى الماركسية بنظرة نقدية** أُطل بها على بيئتى البورجوازية فى مصر، ثم فيما بعد على بيئتى الأمريكية فى الولايات المتحدة، فلم أنبهر بما رأيت كما حدث لكثيرين من أعضاء جيلى، ولم أنغمس فى الاستهلاكية والرغبة فى اقتناء السلع والأشياء والمزيد من السلع والأشياء. **فمن خلال الماركسية أمكننى الاحتفاظ بالبُعد النقدى وبمقدرتى على رؤية ما حولى كاملًا بما فيه من إيجابيات وسلبيات، وبالتالى تجاوزه إلى عالم أرحب.**

***